الملفُّ الحادي عشر

سِلْم الوفاء

في يوم من الأيام أمسكت بقلمي وأردت أن أسجِّل تاريخ حياتي الزَّوجية بكل تفاصيلها ودقائقها، وبمعنىٰ آخر بخيرها وشرها وحلوها ومرها قبل أن تذهب إلىٰ غياهب النِّسيان وتصبح أثرًا بعد عين، وانقضت اللحظات وامتلأت الصَّفحات، ثم أردت أن أعود بالذاكرة إلىٰ الوراء فيرىٰ البصر والبصيرة ما سطرته الأقلام فوجدت لحظة فقر لمَّت الشَّمل ووحَّدت الأفكار وخرجت من محنتها بسلام، ولحظة غنىٰ وثراء أدَّت إلىٰ تماسك البنيان ولم تصب أحدًا بالغرور والكبرياء، وأحلام وأماني لم يكتب لها نصيب في عالم الواقع ولكنها لم تزعزع وحدة العقيدة والإيمان، وأزمات تلو أزمات اشتعلت بها نار الحياة وأدبرت الدُّنيا بوجهها الصبوح وأسفرت عن وجهها الكالح، ومع ذلك ما زال الصَّرح الأسري عالي البنيان، حتىٰ وإن اعترىٰ هذه الحياة كثير من القيل والقال، وطرح السؤال وانعدام الجواب، والشِّجار والخصام، ومظاهر الخلاف فليس ذلك مبررًا أن ينعدم الوفاء والإخلاص وتذهب سنوات العمر بلا مقابل، بل تظل سطورها محفورة في القلوب إن ذهبت بواقعها فهي لم تذهب بصدقها وإخلاصها.

لذلك كانت أيام الحداد رمزًا من رموز الوفاء، ودليلاً من أدلَّة التقدير والتوقير وحفظ العهد والميثاق إن فارق الزوج عالم الحياة ودخل إلىٰ عالم الأموات.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: 234].

فلقد احترم المنهج القرآني غياب الزَّوج عن الحياة الدنيا وانقطاعه عن أهله بلا رجعة فأعطاه كافة الحقوق الواجبات، حيث لم تكن رحلة الحياة الأسريَّة بينه

وبين زوجته مجرد رغبة شهوانية جسدية تنقضي بين لحظة وأخرىٰ، أو رحلة عابر سبيل طلب الزَّاد ثم رحل إلىٰ حال سبيله، بل هي عنوان حياة ورحلة كفاح، وساعات من السَّعادة والعناء، بل قل إنها مشاعر نبيلة حفظت العهد وآمنت بالميثاق الغليظ.

ولكن للأسف لم يحترم الواقع بتقاليده وعاداته هذه المشاعر النبيلة والأحاسيس المرهفة، بل نظر إلىٰ الزَّوجة وكأنها غدت كالقشَّة في مهبِّ الريح ضعيفة مسكينة يتيمة الزوج، ترمقها الأعين فتنبعث منها شرارة الغدر والافتراس، فيزداد بؤسها ويتضاعف عذابها، مرة بغياب زوجها وأخرىٰ بنظرة المجتمع الجاهلي لها، ولكن الإسلام بنظرته الحانية قد مدَّ يد العون والعطف لها ورفع هذا الظلم عنها، فوهبها أيامًا في سِلْمية تامَّة تعتدُّ بها عند موت زوجها عنوانًا للوفاء والإخلاص، واحترامًا لمشاعر أهله، ثم بعد ذلك ما عليها من سبيل، حيث «لم يجمع عليها بين فقدان الزَّوج واضطهاد الأهل بعده، وإغلاق السَّبيل في وجهها دون حياة شريفة، وحياة عائلية مطمئنة، جعل عدَّتها أربعة أشهر وعشر ليال -ما لم تكن حاملا فعدَّتها عدَّة الحامل- وهي أطول قليلا من عدَّة المطلَّقة -تستبريء فيها رحمها، ولا تجرح أهل الزَّوج في عواطفهم بخروجها لتوها. وفي أثناء هذه العدَّة تلبس ثيابًا محتشمة ولا تتزين للخطاب، فأما بعد هذه العدَّة فلا سبيل لأحد عليها، سواء من أهلها أو من أهل الزَّوج. ولها مطلق حريتها فيما تتخذه لنفسها من سلوك شريف في حدود المعروف من سُنَّة الله وشريعته، فلها أن تأخذ زينتها المباحة للمسلمات، ولها أن تتلقىٰ خطبة الخطاب، ولها أن تزوِّج نفسها ممَنْ ترتضي، لا تقف في سبيلها عادة بالية، ولا كبرياء زائفة. وليس لها من رقيب إلا الله»[1].

إذًا فانقطاع الحياة الزوجية ليس معناه القذف بكل الماضي في أعماق البحار، وفي الوقت ذاته ليس حرمانًا مما تبقىٰ من زهرة الحياة الدنيا ولكنه عنوان وفاء وصدق وإخلاص.

(1) السابق 1/ 255.